مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 20 (2014) : 89 – 94
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

أهمية سياق الموقف في إنتاج القول و تأويله و فهم مقاصده:

أ/ عقيلة مصيطفى

جامعة غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

يعتبر الإبلاغ اللغوي بأبعاده التداولية حقلا نظريا وتطبيقيا مهما في الدراسة البلاغية، خاصة على مستوى نظرية التأثير والمقام، أي عملية التأثير في المتلقي، والتواصل بين المتكلم أو المرسل والسامع الذي حظي عند العرب قديما بأهمية لاتقل عن أهمية المتكلم ، فالمرسل هو من يقوم بإنشاء الخطاب، غير أن السامع هو من ينتج له هذا الخطاب ويوجه إليه، كما أنه يشارك مشاركة فعالة في إنتاجه ولو بصفة غير مباشرة، فيستحضر المتكلم مقام المتلقي في كل عملية تواصلية ، مستدعيا مقام الخطاب وأحوال متلقيه، وما إلى ذلك من ظروف الحديث المتنوعة .

إن للأدب خصوصياته، منها ما يرتبط ببنياته الداخلية التي استنفذ الشكلانيون و البنيويون البحث فيها ، ومنها ما يرتبط بشروط إنتاجه و تلقيه ، و علاقته بالزمان و المكان ، لذلك يحضر السياق كأداة إجرائية، يمكنها أن توسع من دائرة فهم النص الأدبي، و تأويله و إخراجه إلى أفق أوسع ، وتكشف أسئلة الكتابة و شروط التواصل ،مما يضمن انسجامه و التواصل معه، فنتجاوز محدودية العلاقة بالموضوع، إلى الرغبة العميقة في استكناه كل الأطراف المشاركة في عملية الإبداع و التلقي . (1)

من أجل ذلك جاءت هذه الدراسة لترصد الأدوار التي يؤديها السياق أو المقام لفهم الخطاب و بلوغ مقاصده المعلنةو الخفية ، و هو ما من شأنه أن يقلص دائرة الإحتمال في القراءات ، و يذهب بالقراءة بعيدا نحو اليقين المقصود من المبدع أو المخاطب عامة .

كل ذلك لنجيب عن الإشكالية التالية :

ما هو الدور الدي يؤديه السياق لفهم دلالة الخطاب و الوقوف على مقاصده ؟ ثم كيف يمكن استعمال السياق أو المقام و توظيفه كآلية تستنبط بها الدلالة الخفية ؟

إن الباحث عن الجذور التي تعود إليها لفظة السياق، يجد أنها تنحدر من الجذر اللغوي (س و ق)، والكلمة مصدر من الفعل (ساق يسوق سوقاً وسياقاً) و يحمل معناها اللغوي دلالة الحدث و التتابع(2)

أمااصطلاحا فتعني ذلك التتابع الذي يسلكه الكلام وفق ترتيب معين ، متخذا نظما ما .

و لقد حدد مالينوفسكي لمصطلح " سياق الحال" معنى خاصا، طوره فيما بعد فيرث في دراساته اللغوية، وسياق الحال عنده نوع من التجريد من البيئة أو الوسط الذي يقع فيه الكلام، و هذا التجريد يقوم به اللغويون للوفاء بدراستهم .(3)

"أمّا القرائن غير اللفظية فهي كل ما يتصل بالحدث الكلامي، وما يلابسه من ظروف، فيدخل ضمنها سياق الحال والمقام، وهي بذلك تشبه السياق الثقافي والاجتماعي الذي تحدث عنه فيرث.(4)

و لما استقر البلاغيون العرب على فكرة"المقام" كانوا بذلك قد تجاوزوا زمنهم بألف سنة، يكون ذلك إذا علمنا أن " المقام " و " المقال " أساسان من أسس تحليل المعنى ، أوجدتهما كشوف العقل المعاصر في دراسة اللغة .(5)

إن مقتضى الحال أو المقام يضم كل ما يحيط بالعملية التواصلية من ظروف مكانية ،وكذا الموقف الذي يصدر فيه الحدث الكلامي، إضافة إلى المخاطب والمتكلم معا.

يتوسع مفهوم "سياق الحال" ليشمل كل ما له علاقة بالنشاط اللغوي كلاما و كتابة، فهذا"بلومفيلد " السلوكي يربط " سياق الحال " بظواهر تتعلق بالحياة

العملية، فهو عنده مادي ،و يعني جملة العناصر المكونة للموقف الكلامي أو الحالة الكلامية، و من هذه العناصر المكونة للحالة الكلامية :

1-شخصية المتكلم و السامع وتكوينهما الثقافي ،و شخصيات من يشهد الكلام من غير المتكلم و السامع- إن وجدوا -وبيان ما لذلك من علاقة بالسلوك اللغوي .

2- العوامل و الظواهر الإجتماعية ذات العلاقة باللغة و بالسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي ،كمكان الكلام و حالة الجو و الوضع السياسي ،و كل ما يطرأ على من يشهد الموقف الكلامي من انفعالات و استجابات .

3- أثر النص الكلامي في المشتركين و ما يترتب عنه من إقناع أو ألم أو ضحك .

و بذلك فنظرية اللغة التي تقوم على فكرة "سياق الموقف " تشمل جميع أنواع الوظائف الكلامية[6]

إن سياق الموقف اصطلاح حديث قد سبق إليه العرب القدامى بمصطلح قريب من هذا المفهوم و هو مصطلح "المقام".

و المقام هو مجموع المشاركين في المقال إيجابا و سلبا، يضاف إليهم كل العلاقات الإجتماعية والظروف " المختلفة في نطاق الزمان و المكان ، و يؤخذ المقام من نسيج الثقافة الشعبية زمانيا في تطورها من الماضي إلى الحاضر، يرثها جيل عن جيل فتكون عنصر ربط بين هذه الأجيال، ثم مكانيا حيث يترابط بها أفراد الجيل الواحد من المجتمع ،مادام كل واحد قد نشأ في خضم هذه الثقافة، وجعل منها منهجا لحياته ، حتى إنه ليتصرف في ظرف معين تصرفا ما، ثم كلما تكرر ذات المقام و الظرف تكرر معه نفس الفعل، ويقصد بالثقافة هنا العادات و أنماط السلوك و التقاليد ، و الفلكلور الشعبي ، و المعتقدات والأحاجي و العواطف الجماعية.[7]

فاللغة العربية، شأنُها شأن غيرها من اللغات الطبيعية، تشتمل عل طائفة من الصيغ والأدوات التي يستعملها المتكلم للدلالة على القوة الإنجازية التي يريد تضمينَها كلامَه كالاستفهام والتمني والإخبار والتقرير والنفي والإثبات والطلب والترجي...فكان على طوائف من العلماء العرب المهتمين بالمعاني والدلالات، لا سيما علماء المعاني والأصوليين، أن يتعرضوا لتلك القوى المتظمّنة في القول بغرض تحديد ما يقتضيه حال معيّن، و بغرض ضبط الدلالة التي يريدها المتكلم من كلامه وتحديد الغاية التي يهدف إليها. [8]

و يتفق جمهور الدارسين أن "سياق الحال" أو "المقام " يعادل الموقف الكلامي الذي يشمل كل ما يحيط بعملية القول من ظروف و أحوال مختلفة تتحكم فيه وتوجهه وجهة معينة .

يرى الدكتور تمام حسان أن القرائن الحالية يمكن أن ترد إلى "المقام " و أنها تقف جنبا إلى جنب مع القرائن المقالية . [9]

"و فكرة المقام هي الأساس الذي ينبني عليه الوجه الإجتماعي من وجوه المعنى الثلاثة، و يتمثل في العلاقات و الأحداث و الظروف الإجتماعية التي تهيمن أثناء "المقال" . [10]

أهمية سياق الحال أو المقام في الدراسة الدلالية :

إن ل "سياق الحال" عند المحدثين أو " المقام" عند القدامى أهمية قصوى للوصول إلى المعنى المقصود من التأليف ، أو الإقتراب منه .

فيرى الأستاذ فيرث أن المعنى كل مركب من مجموعة من الوظائف اللغوية، أهمها هي الوظيفة الصوتيةثم المورفولوجية ،و كذا النحوية و المعجمية و الوظيفية الدلالية ل " سياق الحال"،و لكل منها منهجها الذي يراعى عند دراستها. و للوصول إلى المعنى لابد أن يؤخذ في الإعتبار سائر عناصر" سياق الحال".

و للوصول إلى معنى أي نص لغوي لابد أن يمر الدارس بالمراحل المنهجية التالية:

1- أن يحلل النص على مستوياته اللغوية المختلفة(الصوتية و الفونولوجية، المورفلوجية، النظمية و المعجمية).

2- أن يبين سياق الحال: شخصية المتكلم ، شخصية السامع ، و جميع الظروف المحيطة بالنص أو الكلام.

3- أن يبين نوع الوظيفة الكلامية من تمن أو إغراء.

4- أن يذكر الأثر الذي يتركه الكلام من تصديق أو ضحك ...إلخ [11]

فلا يمكن بذلك لدارس المقال أن يقف على جميع حقائقه اعتمادا على سياقه اللغوي فقط، وبعيدا عن المقام الذي قيل فيه ، فلو كان ذلك جاء فهمنا قاصرا ناقصا و مبتورا، فمن يقرأ قول شوقي :

و ما للمسلمين سواك ذخر
إذا ما الضر مسهمو و نابا

فمن يقطع مقال البيت عن مقامه يجد أن شوقي في بيته هذا يجعل النبي و هو ميت ملاذا للناس وذخرا ،لكن معنى البيت يتضح في ضوء المقام بما لا يتضح دونه ، حين يكون النبي هاديا و مرشدا فقط . [12]

من أجل ذلك يؤكد الدكتور تمام حسان أن الطريقة المثلى في استخراج الدلالة ترتكز أساسا على عدم الإكتفاء بمعنى المقال مهما توافرت القرائن المقالية معنوية كانت أم لفظية ، إذ لا غنى لنا عن القرائن الحالية التي نستمدها من المقام، و التي نرتفق بها لا محالة للوصول إلى مقاصد النص ، و مراميه . (13)

فالسياق مسألة ضرورية و حاسمة في مجال اللغة ، يسمح لنا بالحديث عن الأشياء بدقة ووضوح،

و يمكننا من دراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الإجتماعي و الكلامي في استعمال اللغة ، وأي استغناء عن السياق سيجعل قناة التواصل متوترة ، فغالبا ما يخدع المعنى الحرفي للملفوظات في غياب القيمة التلفظية، حيث الكلمات و معانيها الحرفية قوالب تنصهر في إطارها الملامح النطقية كالنبر و والتنغيم ، و الخارج لغوية كحركات الرأس و اليد و التعبير بالوجه .

و لا يمكن للدارس أن يصل إلى بحث المعنى على المستوى الوظيفي(الصوتي و الصرفي و النحوي والمعجمي) إلا إلى"معنى المقال" ، أو" المعنى الحرفي " حسب تعبير الأصوليين، و هو معنى يبدو فارغا من محتواه الإجتماعي و التاريخي ،معزولا عن كل ما يحيط بالنص من القرائن الحالية ،و هي قرائن كبرى في تحديد المعنى ، و هو ما أدركه علي بن أبي طالب- كرم الله وجهه-حين رد على هتاف الخوارج " لا حكم إلا لله " بقوله : " كلمة حق أريد بها باطل " و قصد أن الناس ربما قنعوا بالمعنى الحرفي ، و بظاهر النص لهذا الهتاف، و صدقوا أن الخوارج أصحاب قضية تستحق دفاع الناس عنها، غافلين عن المقام الحقيقي الذي ينبغي أن تقرأ فيه هذه العبارة ، و هو مقام محاولة" إلزام الحجة سياسيا بهتاف ديني " فالهتاف هنا من السياسة و المقال من الدين ، و قد كان على الناس أن يفهموا المقال في ضوء المقام .(14)

وكما "للمقام " أو " سياق الموقف" دور في تحديد الدلالة و الوقوف عليها ، فله أيضا دور بالغ الأهمية في تأليف الكلام و نظمه ، و نسجه وفق أحوال خاصة تقتضي أنماطا تعبيرية خاصة و ملائمة.

و بذلك يتحكم الإستعمال و المقام في نقل عبارة من غاية إلى أخرى ، و من دلالة إلى أخرى ،من ذلك مثلا عبارة " اسمع يا فلان " يقولها الصديق للصديق في الخطاب العادي ، لكنها قد توظف في سياق آخر للنصح أو التهديد ،كما قد تتحول عبارة " لليمين در " من غايتها العسكرية المحددة إلى السخرية من شخص تطرده ، و الأمثلة وفق هذا كثيرة جمة ،كما قد تتحول عبارة " مع السلامة " من الدلالة على التوديع إلى الدلالة على السخرية و الطرد ، كما يمكن لعبارة " لا إله إلا الله " أن تقال للذكر أو التأفف ، أو في الآذان...إلخ . (15)

و هكذا يتحكم الموقف الكلامي في اختيارات المبدع أو القائل .

- إن الكثير من نصوص تراثنا العربي يكتنفها الغموض، ذلك أن الذين رووا هذه النصوص لم يعنوا بالوصف الشامل للمقام الذي قيلت أو كتبت فيه هذه النصوص، يصير بذلك لزاما على القارئ المعاصر أن يبذل الجهد مضاعفا من أجل إعادة بناء المقامات الصحيحة لهذه النصوص ، مما يسمح بالقراءة المثلى لها ، تلك القراءة التي من شأنها أن تضيئ جوانب النص . (16)

- و لعل من الأمثلة التي تؤكد ضرورة اعتبار المقام ،و الإعتناء به لتحديد المعنى الدلالي المثال الوضيحي التالي " يا سلام " "فالياء " حرف نداء ، و" سلام "اسم من أسماء الله تعالى ، والذي يناقض الحرب معجميا ، و الأخذ بالمعنى الوظيفي لأداة النداء الياء و المعنى المعجمي لكلمة سلام ، أو ما يسمى المعنى الحرفي أو المقالي أو ظاهر النص يحيل على أننا ننادي الله سبحانه وتعالى لا أكثر و لأقل ،و لكن هذه العبارة صالحة لأن تدخل في مقامات اجتماعية كثيرة،و مع كل مقام قد توافقها نغمة مختلفة تصاحب نطق العبارة ، فقد توظف في مقام السخط أو التشكيك أو التأثر ، أو التوبيخ أو الإعجاب، و الظاهر أنها تحية إسلامية يجاب عليها بأحسن منها ، أو بمثلها ،غير أنها قد تحول إلى مقام المغاضبة إذا وقع جدل بين اثنين فيقطع أحدهما بها جدله منصرفا، و هذا المعنى لم يسقه المعنى الوظيفي وحده و لا المعجمي وحده ولا هما معا ، وإنما يعود إلى المقام الإجتماعي الذي يجمعهما مع الظروف التي صاحبت القول . (17)

وعليه فالوصول إلى المعنى في صورته النهائية لابد أن يمر عبر الطرق التحليلية التي تقدمها فروع الدراسات اللغوية المختلفة ،و هي الصوتيات و الصرف و النحو ، و الخاصة بتحليل المعنى الوظيفي ، ثم المعجم الخاص بالمعنى المعجمي،غير أن الحقائق المتوصل إليها في هذه المستويات هي حقائق جزئية بالنسبة إلى المعنى الدلالي ،ذلك أن هذه الحقائق هي إما وظائف ما في الصوتيات و النحو والصرف،أو علاقات عرفية اعتباطية على نحو ما هو في المعجم ،و تتضح الوظائف نتيجة للتحليل على المستويات الثلاثة الأولى، أما العلاقات العرفية الإعتباطية

فالمقصود بها العلاقات بين المفردات و معانيها ، واكتمال هذه الوظائف يحقق القدرة على الإعراب ، ، فمجرد وضوح هذه العلاقات لا يؤدي إلا إلى فهم الكلمات المفردة على مستوى المعجم ،ووضوح معاني المفردات لا يكشف حتى عن المعنى الحرفي أو ما يسمى ب"ظاهر النص "، و ذلك أن معنى ظاهر النص يحتاج إلى الوظائف أي المعنى الوظيفي ، كما يحتاج إلى العلاقات العرفية بين المفردات و معانيها، ولا يكتمل" المعنى الدلالي " إلا بالمعنى الإجتماعي أو " معنى المقام "، إضافة إلى تحليل الوظائف على مستوى النحو و الصرف والصوتيات ، و تحليل العلاقات العرفية بين المفردات و معانيها على مستوى المعجم ،لكن المعنى الدلالي يظل ناقصا حتى تتم ملاحظة العنصر الإجتماعي الذي هو" المقام " . (18)

- **العلاقة بين المشتركين في الخطاب:**

لا يتحقق التواصل الأمثل بين المتكلم والمخاطب إلا عندما يستحضر المتكلم المعنى في نفسه و غرضه و هو ما يعرف ب :"المقصدية "، ثم يستحضر المقام الذي يوجد فيه المتلقي ، و كذا كل الظروف المصاحبة للقول .

"و لقد كان "أوستين" يلح على القيمة التداولية لعبارات لغوية كثيرة تستخدم في اللغة الإنجليزية، وربما في كل اللغات. ومن الجديد الذي يخالف به الفلاسفة الكلاسيكيين، إدخاله مفهوم **"القصدية** Intentionnalité" في فهم كلام المتكلم وفي تحليل العبارات اللغوية، وهومبدأ أخذه من الفيلسوف"هوسرل"والظاهراتيين، واستثمره في تحليل العبارات اللغوية. وتتجلى مقولة **"القصدية"**، بالخصوص، في الربط بين التراكيب اللغوية ومراعاة غرض المتكلم والمقصد العام من الخطاب". (19)

- علاقةالمقام بغرض الخطاب :

يغير كل فعل كلامي لغة السياق، إذ قد تكلف المسألة مثلا المخاطب أن يرد بجواب ، وهذا ما يستدعي الإعتراض ، و يؤثر السياق في عرض القول بتعديله ، لأن السياق هو أثر أفعال اللغة السابقة ، و سبب أفعال اللغة اللاحقة . (20)

إن المقام هو الذي يوجه إلى الغرض من الخطاب و يدل عليه، و في الآن ذاته يتأثر الخطاب بنمط المقام ويتكيف حسبه، حين يراعي المتكلم المخاطب أحوال المتلقي المخاطب ، و الظروف التي يكون فيها ، و هو ما اصطلح عليه البلاغيون العرب القدامى ب "مقتضى الحال"

و من نماذج تحويل غايات الأداء على المستوى النحوي أن يتحول الإثبات و هو خبر إلى الشرط نحو المثال التالي:" الذي يأتيني فله درهم "، أو إلى إنشاء الدعاء في " رحمه الله " ، و قد يتحول الإستفهام إلى التقرير في قوله : " أليس الله بكاف عبده " ، وأن النداء قد يتحول إلى التعجب نحو "يا عجبا "، وقد تتحول الإستغاثة إلى التعجب نحو " يا الله "، و أن الأمر قد ينقلب إلى الدعاء " اللهم ارحمه " ، و هذا التحول النحوي لا يعتبر من دراسة الدلالة ، و إنما هو من قبيل تعدد المعنى الوظيفي ، ذلك أن تحول المعنى الوظيفي للجملة لايكون في الغالب إلا بعون القرائن الحالية التي هي من المقام .

فتحكم المقام و غير الإتجاه الطبيعي للجملة القولية نحو أنماط دلالي أخرى غير مألوفة، أوحى بها السياق اللغوي والسياق غير اللغوي . (21)

يصبح بذلك من العسير الوصول إلى دلالات الألفاظ القريبة و القصية من خلال الكلمة ذاتها ووحدها ،إذ تتعدد معاني الكلمات قبل أن تلج سياقا بعينه ، لكن دخولها سياقا محددا يعين المعنى المراد لها ، وليس ذلك السياق إلا "المقام" أو "سياق الحال"،يصبح بذلك الإعتماد على المعجم وحده قاصرا عن الإدراك الدقيق لمعنى الكلام ،وهو صميم بحث التداولية ومجالها، حين تعنى بتتبع العلاقات الموجودة بين المعطيات الداخلية للملفوظ وبعض خصائص الجهاز التلفظي من : مرسل – متلقي-وضعية التلفظ، و غيرهامن شروط القول و الكلام .

- معالم نظرية السياق عند البلاغيين والعلاقة بين "المقال" "والمقام"

إن المتصفح لأغلب الدراسات اللغوية و البلاغية العربية في تراثنا العربي ، و التي قام بها جمهرة من كبار الدارسين نحاة كانوا أم بلاغيين أو لغويين عامة ، فإنه لا محالة يلمس ذلك الإحتفاء بالسياق وسيلة لبلوغ مقاصد الكلام و مراميه ، و البلاغيون أكثر الفئات اعتمادا عليه ، يأتي ذلك منهم غالبا تحت مصطلح " المقام "، أو" الحال" و "الحال" حال الشيء الذي تعلق به القول.

و تكاد تتجلى بوضوح الإرهاصات المبكرة للنظرية السياقية في مباحث العرب القدامى ، و بصفة خاصة ما نجده في دراسات البلاغيين أكثر من غيرهم ، و تتركز أساسا و تتمحور حول فكرة (مقتضى الحال) و كذا العلاقة بين "المقال" و"المقام" ،فما نعته القدامى ب "مقتضى الحال، أو "المقام" هو ما وصفه المحدثون ب"سياق الحال" المقام".

ولم يفت البلاغيين القدامى أن يدركوا أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، شديدة الإرتباط بثقافة الشعب الذي يتكلمها ، إذ يمكن تحليل هذه الثقافة بواسطة حصر أنواع المواقف الإجتماعية المختلفة التي يسمونها مقاما ، فمقام المدح غير مقام الدعاء أو الإستعطاف، أو التمني أو الهجاء . [22]

ولقد وقع البلاغيون العرب على عبارتين من جوامع الكلم تصلح لكل اللغات و الثقافات و هما : "لكل مقام مقال" و " لكل كلمة مع صاحبتها مقام " ، و لم يكن "مالينوفسكي" و هو يصوغ مصطلحه الشهير "context of situation" يعلم أنه مسبوق إلى هذا المعنى منذ أكثر من ألف سنة تحت مصطلح" المقام " ، ولقد سبق النحاة العرب إلى شيئ من هذا المعنى بقولهم :"الإعراب فرع المعنى "، إذا فهم بالإعراب معنى التحليل، فلا تحليل يكون إلا بفهم المعنى الوظيفي لكل مبنى من مباني السياق ،إذ ينحصر التحليل آنئذ في الصوتيات و الصرف و البلاغة دون المستوى المعجمي ،لأنه علاقة عرفية لا يصدق عليها قولهم " الإعراب فرع المعنى "، يصبح بذلك المعنى الدلالي حصيلة تفاعل عناصر ثلاثة و هي : المعنى الوظيفي و المعنى المعجمي و المقام . [23]

و لما نادى البلاغيون بأن "لكل مقام مقال" ، إنما قصدوا أن الموقف قد يتطلب أسلوبا ما قد يكون من أسالب الحقيقة أو المجاز ، يقتضيه الموقف و يرشحه دون غيره من الأساليب ". [24]

ومن البلاغيين القدامى الذين بلغ مبحث " المقام " عندهم شيئا من النضج و التنظيم "السكاكي " ، الذي يرى أنه على المبدع أوالمتكلم أن يدرك أن مقامات الكلام متفاوتة، وعليه أن يحسن اختيار الأسلوب و التعبير المناسب للمقام الراهن ، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية ، و مقام التهنئة يباين مقام التعزية، و مقام المدح يباين مقام الذم ، و مقام الترغيب يباين مقام الترهيب،و مقام الجد يباين مقام الهزل،و مقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار، و مقام الكلام مع الذكي يباين مقام الكلام مع الغبي ،و لكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر. [25]

ويضيف في السياق ذاته قائلا :"ثم إذاشرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبتها مقام ، و لكل حد ينتهي إليه الكلام مقام، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن و القبول ، وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به ، و هو الذي نسميه "مقتضى الحال" ، فإذا كان مقتضى الحال إطلاق الحكم ، فحسن الكلام تجريده من مؤكدات الحكم، و إن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك ، فحسن الكلام تحليه بشيئ من ذلك بحسب المقتضى ضعفا و قوة ". [26]

"و إن كان مقتضى الحال طي ذكر المسند إليه، فحسن الكلام تركه،و إن كان المقتضى إثباته على وجه من الوجوه المذكورة ،فحسن الكلام وروده على الإعتبار المناسب ، وإن كان المقتضى ترك المسند ،فحسن الكلام وروده عاريا عن ذكره، و إن كان المقتضى إثباته مخصصا بشيء من التخصيصات، فحسن الكلام نظمه على الوجوه المناسبة من الإعتبارات المقدم ذكرها ، و إذا كان المقتضى عند انتظام الجملة مع أخرى فصلها أو وصلها، و الإيجاز معها أو الإطناب، فحسن الكلام تأليفه مطابقا لذلك ." [27]

إن الإكتفاء بمعنى المقال ، وبين عدم الإكتفاء به و الغوص وراء المراد الحقيقي للمشرع و هو معنى "المقام " شبيه بذلك الفرق الذي يجده الناس بين " نص القانون " و ما يسمونه "روح القانون " ، يمثل لذلك أحمد أمين بقوله :أن عمرا كان يستعمل الرأي في أوسع من المعنى الذي ذكرنا و هو استعمال الرأي حيث لا نص من الكتاب أو السنة، ولقد ذهب عمر إلى أبعد من ذلك ، حين يجتهد في الوصول إلى المصلحة التي لأجلها كانت الآية أو الحديث، و هو استرشاد بروح القانون لا بحرفيته ،متجاوزا منطوق الآية أو الحديث و مقاله ،متوغلا إلى أسباب النزول و الظروف الإجتماعية والتاريخية التي صاحبته ،متجاوزا معنى القول الحرفي إلى المعنى الإجتماعي،أي متخطيا معنى " المقال " إلى معنى " المقام " . [28]

من ذلك استشهاده بعد وفاة النبي – صلى الله عليه و سلم –بقول الله تعالى <<و ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم و من ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاو سيجزي الله الشاكرين >>

قال عمر عند سماعه هذاالإستشهاد ما معناه :<< و الله لكأني لم أسمع هذه الآية من قبل>> ،

و لقد كان لهذا الإستشهاد البارع من عمر أثره الحاسم في إصلاح مقام من أخطر مقامات الفتنة في التاريخ الإسلامي ، إذ أخمدها في مهدها .

و بذلك فالمقام بما يتوفر له من مزايا تجعله صالحا للإستحضار في مقامات مشابهة للمقام الأصلي الذي قيل فيه ، فيصبح "المقال" القد يم جزءا من المقام الجديد، فيدخل في تحليل هذا المقام الجديد . [29]

أما عن علاقة "المقال" ب "المقام" الذي أنجز فيه ، فهي علاقتان : علاقة المقال المنطوق بمقامه ،

و علاقة المقال المكتوب بقامه، فهذا الأخير لا يقع في أثناء قراءته، بل يأتي لاحقا لمقامه الإجتماعي الذي كان له في الأصل، فمن الضروري أن يعاد بناء هذا

المقام الأصلي في صورة وصف له مكتوب حتى يمكن فهمه على الوجه الصحيح ، كما لابد من الرجوع إلى الثقافة عموما، و إلى التاريخ خاصة ، و كلما كان وصف المقام أكثر دقة ، كان المعنى الدلالي معه أكثر وضوحا . (30)

و بذلك يكون بناء "المقام" أو "سياق الحال" اعتمادا على القرائن الحالية التاريخية ،و القرائن المقالية التي في وصف المقال،فمن يقرأ خطبة الحجاج بن يوسف الثقفي على منبر الكوفة في جهل تام لمقامها التاريخي، يتهم الحجاج بتهم عديدة في مقدمتها سوء السياسة، لاسيما أنه لم يجرب رعيته بعد ، ويتضح هذا المقام من خلال تبيان العلاقة بين بني أمية و العراقيين ،و الذي شمل وقائع عدة منها مقتل عثمان – رضي الله عنه-و معركة صفين و قتل الحسين ، و كذا تشيع العراقيين و كراهيتهم لبني أمية ، و من ثم رغبة الأمويين في معاقبة العراقيين خشية الخروج عنهم و عن ولاتهم، و يتضح المقام أكثر إذا علمنا أن الملك عبد الملك بن مروان كان قد أرسل الحجاج واليا على العراق، و كان أغلب العراقيين شيعة يكرهون الأمويين و يعصون ولاتهم ، فلما دخل الحجاج المسجد، و كان ضئيل الجسم ،أرخى عمامته على وجهه وصمت صمتا مملا ، فقال عمير بن ظابئ البرجمي:" قبح الله بني أمية إذ يرسلون إلينا مثل هذا"، فحسر الحجاج عن وجهه ما كان أرخاه من عمامته قائلا :

أنا ابن جلا و طلاع الثنايا
متى أضع العمامة تعرفوني

فهذا وصف للمقام التاريخي الإجتماعي الذي قيلت فيه هذه الخطبة، فينتفي بذلك عن الخطبة معنى سوء السياسة إلى معنى الحزم. (31)

صياغة المقال عند البلاغيين و علاقته بأحوال المخاطب المتلقي :

إن المتكلم المخاطب قبل أن ينشئ نصه عليه أن يستحضر الطرف الآخر المتوجه إليه بالخطاب ، وبناء على ما تقتضيه حاله النفسية و الإجتماعية و الثقافية ، وكذا ظرفه الحاضر الذي يتلقى فيه الخطاب، تكون صياغة القائل أو المبدع لمقاله، وذلك ليضمن أكبر قدر من الإستجابة و المقبولية لخطابه عند متلقيه .

و في هدا السياق يفضل الزعماء في خطبهم العدول عن ضميري المتكلم إلى كلمة " الشعب " فيقولون : " إن الشعب يريد " بدل " نحن نريد"، أو " أنا أُريد " ،لما توحي به " أنا " من دلالة على الفردية و التسلط ، و ما توحي به " نحن " من دلالة على تعظيم النفس ، و المعلوم أن مقامي التسلط وتعظيم النفس مما ينفر الجماهير في زعمائهم ، كما يعدل الواعظ غالبا عن ضمير المخاطبين إلى ضمير المتكلمين، فيتحاشى أن يقول " ينبغي أن تعودوا إلى حضيرة الدين "قائلا : " ينبغي أن نعود إلى حضيرة الدين "و يتحاشى أن يقول:" غفر الله لكم " قائلا : " اللهم اغفر لنا " ، و قد يقتضي المقام أحيانا أن يعدل المتكلم عن ضمائر الخطاب إلى ضمائر الغيبة لما في ذلك من حرج المواجهة . (32)

ومما سبق يستيقن الدارس لأعمال العرب القدامى أنهم قد اقتربوا فعلا من الدرس أو التفكير التداولي إستنادا إلى علوم كثيرة عرفوها ، وانشغلوا بها كالنحو والنقد والخطابة، وعلم الأصول، وعلم البلاغة. (33)

غير أن الرسالة الشعرية تفتقر إلى السياق، إذ تنتمي إلى تواصل تخيلي، ومفترض بين باث و متلقي ، فالمبدع يجرد من ذاته ذاتا تخييلية، تمكنه من اختلاق سياق معين يضمن له التواصل و التفاعل و بث الرسالة، كما أن المتلقي يقلب الرسالة، و يعتبر نفسه مقصودا بها، فيتفاعل و ينجز حدث القراءة، ثم يتخيل سياقا معينا لهذا الحدث، و بذلك يقع التفاعل المطلوب . (34)

وبذلك بات لزاما على طلاب اللغة و الأدب العربي أن يدرسوا مقررات التاريخ الإسلامي و الفلسفة و الحضارة الإسلامية ،و الأدب و الحديث و التفسير و الشريعة و غيرها من العلوم المعينة ، حتى إذا نظر هذا الطالب في نص أدبي بغية تحليله ونقده ،يكون له من المعلومات الشاملة التي تعينه على وصف المقام، و من ثم فهم النص محل الدراسة، و هي فروع إيضاح للمقام المتعلق بالنصوص التي نصادفها في التراث العربي . (35)

و ختاما فهذا المنهج في بحث الدلالة يصدق على النصوص المنطوقة ذات المقام الحي الحاضر ، كما يصدق على النصوص المكتوبة ذات المقام المنقضي ، و الذي يمكن بناؤه من جديد بالوصف التاريخي ، فمن هنا تتجلى قيمة و أهمية هذا المنهج في قراءة كتب التراث و مدارستها، ذلك أن الإكتفاء بالمعنى الحرفي أو معنى ظاهر النص ،أو معنى المقال،يعتبر سببا في قصور الفهم و نقصانه . (36)

وحوصلة لما سبق بسطه يتحقق للدارس أن مقاصد النصوص و كوامنها الدلالية تظل خفية غائرة في مساربها الحاملة لها ،و أن الوقوف على حواف النصوص اللغوية من شأنه أن يضيئ بعض

ظلماتها ، لكنها لا تنزاح كلية إلا باستحضار المقامات التي صيغت في ظلالها ، فأثرت في صياغاتها ونسوجها، ولما يقع التفاعل بين المجالين أو السياقين اللغوي وسياق الحال أو الموقف ، حينداك فقط تولد الدلالات ويمسك بها القارئ .

الهوامش:

1-ينظر علي آيت أوشان : السياق و النص الشعري من البنية إلى القراءة ، دار الثقافة ، دار البيضاءط:01 ،2000-1421 ص:18

2- ينظر: لسان العرب لابن منظور،مادة (سَوَقَ)، مج:10، دار صادر، بيروت، ط2، 1412هـ- 1992م.ص:165

3-ينظرمحمود السعران :: علم اللغة (مقدمة إلى القارئ العربى)، دار الفكر العرب، القاهرة، ط: 2 - 1997 ص: 310

4- نقلا عن أحمد خضير عباس علي : أثر القرائن في توجيه المعنى "رسالة دكتوراه مخطوط- كلية الآداب في جامعة الكوفة العراق 1431ه-2010 ،ص:100

5- ينظرد تمام حسان : اللغة العربية معناها و مبناها، دار الثقافة ،الدار البيضاء ، المغرب،ب ط،1994 ص :337

6-ينظر محمود السعران : م س ، ص 311-312

7-ينظر تمام حسان ن ص : 351

8-مسعود صحراوي: الأفعال الكلامية عند الأصوليين دراسة في ضوء اللسانيات التداولية مجلة اللغة العربية، العدد:10،ص:182،

9-الدكتور تمام حسان : كتاب الاصول دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب ، النحو – فقه اللغة – البلاغة عالم الكتب القاهرة ط1420-2000 ،ص: 316

10-ينظرتمام حسان : اللغة العربية معناها و مبناها ،ص: 337

11-ينظر محمود السعران ،م س ،ص:312

12-ينظر تمام حسان : اللغة العربية معناها و مبناها، ص : 351

13-ينظر المرجع نفسه ، ص : 334

14-ينظر المرجع السابق،ص: 337-338

15-ينظر تمام حسان : اللغة العربية معناها و مبناها ، ص :371

16-ينظر المرجع نفسه ،ص :373

17-ينظر المرجع نفسه ،ص : 345

18-ينظر المرجع السابق ، ص:341-342

19-مسعود صحراوي، م س ، ص:184-185

20-ينظر علي آيت أوشان ، م س ، ص:62

21-ينظر تمام حسان: اللغة العربية معناها و مبناها ، ص :371-372

22-ينظر المرجع السابق ،ص :337

23-ينظر المرجع نفسه ، ص:372

24-ينظر المرجع نفسه ، ص :337

25 ينظر أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي مفتاح العلوم ، تحقيق الدكتور عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط:1، 1420-2000.،ص:256

26-المصدر نفسه ، ص :256

27-ينظر المصدر السابق،ص : 256-257

28-ينظرتمام حسان : اللغة العربية معناها و مبناها ، ص338

29-ينظر المرجع نفسه ،ص : 340

30-ينظر المرجع نفسه ،ص : 346

31-المرجع السابق ، ص :347

32-ينظر المرجع نفسه ،ص :362

33-ينظر علي آيت أوشان ، م س ، ص :63

34-المرجع السابق ، ص: 9

35-ينظر تمام حسان : اللغة العربية معناها و مبناها ، ص :347

36-ينظر المرجع نفسه ، ص:372